الفـــن

للكاتب الفرنسي بول هيزيل

بقلم الدكتور محمد بهجت

تمهيد المترجم

في شهر مارس من عام ١٩٢٥ أسعدني الحظ بالوقوف بباريس مدينة الفن والجمال والنور لأيام قلائل جعلت هي خلالها ارتياد المتاحف والدور والمعارض التي تزخر بأشتات الفنون ، التالد منها والطريف . وكنت أنتهب بعيني وقلبي تلك الروائع الفريدة ، وأحاول جهدي استيعابها واستذكار ما دق من محاسنها ومفاتنها ولكن هيهات !

وكان من بين ما راعني وملك علي لبي ومشاعري أعمال المثال العظيم رودان[1]، ثم غادرت مهد الفن والجمال آسفاً ، ولم أنقع صدى نفسي الهيمانة من نمير ذلك المنهل الصافي العذب . غادرته وبالحلق غصة ، وبالقلب لوعة ، إلى بلاد الثروة والمال والجاه — إلى أمريكا العظيمة . واستقر بي المقام بولاية كاليفورنيا ، قبالة مدينة سان فرنسسكو — عروس المحيط الهادي ، حيث انصرفت إلى الدرس والتحصيل — تحصيل العلم والفن . غير أن شواغل الدرس لم تكن لتصرفني عن التحليق بروحي من آن لآخر في سماء باريس وفي ردهات متاحف باريس لعلي ألم ببعض ما افتنت به من روائع القدامى والمحدثين ، وبما أحببت من أعمال رودان . ولم ألبث طويلا حتى رأيت المال الأمريكي يستقدم نسخاً عديدة من أعمال هذا العبقري العظيم ويحشدها بأحد متاحف مدينة سان فرنسسكو ، فكنت أخف لزيارتها من حين لآخر دارسا لها ، مستمتعا بها .

وفي ليلة الميلاد من عام ١٩٢٨ ، أهدى إلي كتاب عنوانه : « الفن » وضعه الكاتب الشهير بول جيزيل في أسلوب محاورة جرت بينه وبين رودان ، يعرض الكاتب مسألة فنية فيندفع الفنان في شرحها وتحليلها وإبداء رأيه فيها . وقد حاول الكاتب والفنان معا أن يجلوا كثيراً من نواحي الفن وأن يقربا فهمه إلى أذهان الكثيرين ممن لا يستطيعون فهمه على حقيقته ، وأن يثقفا به عقول الكثيرين ممن يعنون بقراءة الكتاب ويقدمون لهم غذاء روحيا شهيا لا تنفد لذته ، وعندي أنهما بلغا في ذلك تمام القصد بفضل طلاوة الموضوع الذي يعالجونه من ناحية ، وبفضل الوضوح والنضوج اللذين امتاز بهما الفنان ، والساطة والرشاقة اللتين خص بهما الكاتب من ناحية أخرى ، وإن كتابا يشترك في إخراجه فنان عبقري رقيق ، وكاتب بارع رشيق ، لخليق بأن يلقى من الإنسانية المتمدينة أكبر اهتمام ، وأن يخلد بما فيه على مر الأيام .

وكان من الطبيعي أن يخطر ببالي نقل هذا الكتاب الممتع إلى قراء العربية فأقدم إليهم بذلك نوعا طريفا من التأليف ، وثقافة فنية يحتاجها الفنان وغير الفنان على السواء . قمت بهذا العمل الشاق من زمن طويل ، ثم طرحته جانبا مترددا مرتقبا لظروف غير الظروف إلى أن وقعت عليه عين أستاذي وصديق الزيات فأرادني على نشر بعض فصوله فنزلت على إرادته .

قصة المؤلف

تقع على نهر السين ، قريبا من بلدة ميدون التي لا تبعد كثيراً عن باريس ، قرية ذات اسم جميل هو « ڤال فلبرى » . تكلل هامة التل الصغير المشرف عليها بضعة أبنية تسترعي الأنظار بجمالها وغرابتها . وربما جال في خاطر من رآها أنها ملك لفنان . وحقيقة الأمر أنها ملك « أوجست رودان » الذي اتخذها مقراً له . وإذا ما قاربها المرء وجدها مؤلفة من ثلاثة أبنية رئيسية منعزلة . أما الأول فمنزل صغير ذو سقف عال مائل ، مبني بالآجر والأحجار على طراز لويس الثالث عشر ، وقد اتخذه مسكنا له . وأما الثاني فبناء مستدير يقوم إلى جانب المنزل ، له رحبة فسيحة يدخل إليه بسقيفة ذات عمد هي نفس السقيفة التي أظلت معروضاته التي عرضها عام ١٩٠٠ في معرض خاص أقيم بزاوية من « شارع پونت دي لالما » Pont de l'alma بباريس . وكان من دواعي سروره أن تقام هذه السقيفة مرة أخرى في صدر هذا البناء الذي اتخذه مرسما . وقريبا من هذا وعلى حافة التل المنحدر يقع قصر

(١) أوجست رودان مثال فرنسي عبقري معاصر . له في النحت على المذهب الواقعي روائع أطارت صيته وخلدت ذكره . ولد بباريس سنة ١٨٤٠ وتوفي بميرون سنة ١٩١٧ .

أو بالحرى واجهة قصر من قصور القرن الثامن عشر بها مدخل ظريف بعلوه إفريز مثلث الشكل يظهر بمثابة إطار لباب من الحديد اللين الزهر . وسيأتى ذكر هذا القصر فيما بعد .

تقع تلك المجموعة المتباينة الصفات . وسط بستان وادع بناحية هى ولا ريب من أجمل وأسحر النواحى التى بأرباض باريس ، جادت عليها الطبيعة بكثير من جمالها ، وزاد من جمالها ذلك المثال الذى نزل بها وسكنها ، فنمقها بكل ما يمكن أن يوحى به ذوقه السليم .

وبينما كنت أسير مع أوجست رودان تحت الأشجار التى تظلل رأيته الفاتنة فى أصيل يوم من أيام مايو من السنة الماضية أفضيت إليه برغبتى فى الكتابة عن آرائه فى الفن وعلى أن يكون ذلك من إملائه فقال لى : « يا لك من إنسان عجيب . لا زلت مهتما بالفن إلى الآن ! ان الاهتمام به لا يتفق والعصر الحاضر . فالفنانون اليوم ، وأولئك الذين يحبون الفنانين أشبه شىء بالحفريات القديمة . تخيل ناشدتك الله مخلوقا من تلك المخلوقات البائدة يدب فى شوارع باريس ، وعند ذلك يتبين لك الأثر الذى ستحدثه بمعاصرينا عندما تكتب عن الفن أو تتكلم فيه . ان عصرنا عصر مهندسين ورجال صناعة ، وليس عصر فنانين . فغاية السعى فى حياتنا الحديثة هى المنفعة ، وينصب جهدنا على تحسين بقائنا المادى . يطالعنا العلم كل يوم بمبتكرات جديدة خاصة بالمأكل والملبس وبوسائل التنقل ويخرج إلينا بسلع رخيصة وضيعة كيما يوفر لجمهرة الناس ما يصبون إليه من كماليات زائفة . ولو أنه مع ذلك أدخل تحسينا عظيما على كل ما يتصل بحاجاتنا اليومية وعت إليها بصلة . ولكن لم تعد المسألة مسألة روح أو فكرة أو أحلام . لقد مات الفن .

الفن هو التأمل . هو لذة العقل الذى يبحث فى أغوار الطبيعة والذى يقدس فيها الروح التى تسود الطبيعة نفسها . هو متاع النهن الذى يستشف الكون والذى يعيد خلقه بنظرة فاحصة صادقة . الفن هو أسمى رسالة للانسان لأنه يعبر عن الفكر الذى يبحث ليهتدى إلى تفهم العالم وليجعل العالم جليا مفهوما .

يعتقد الإنسان اليوم أنه يستطيع الحياة بدون فن . انه يأبى أن يتأمل أو يتيه فى مهامه الفكر أو يسبح فى عالم الخيال . يريد أن يستمتع استمتاعا ماديا ، انه يقنع بإشباع شهواته الجسمانية ، أما سحر الحقيقة وأغوارها فلا يعبأ بها أو يعيرها اهتماما . فإنسان اليوم حيوانى الميول لم يخلق من الطينة التى خلق منها الفنانون .

وفضلا عن ذلك فالفن هو الذوق . هو ما ينعكس من نفس الفنان على كل ما يبتدعه من الأشياء . هو ابتسامة الروح الإنسانية للمنزل والأثاث . وهو جمال الفكرة والشعور مجسما فى كل ما ينفع الإنسان . ولكن كم من معاصرينا يشعر بضرورة شيوع الذوق فى المنزل والأثاث، كان الفن منتشرا بكل مكان فى فرنسا فى أيامها الخوالى . فكان أوساط الناس ، حتى الفلاحون منهم لا يستعملون من الأشياء إلا ما يفرح العين ويسرها . كانت مقاعدهم وموائدهم وصدورهم وقواريرهم جميلة . أما اليوم فقد اختفى الفن من الحياة اليومية ، حتى ليقول بعض الناس ان الجمال لا يشترط توفره فيما هو مفيد من الأشياء ... كل شىء قبيح خال من الرشاقة ، تصنعه آلات غبية فى سرعة وعجلة . أما الفنان فينظر إليه كما لو كان خصيما مناهضا . آه يا عزيزى جيزيل ، أتريد أن تبسط آراء الفنان وأن تبرز أفكاره ؟ ماذا بك ؟ دعنى أتفحصك ! إنك وايم الحق لإنسان عجيب » .

فقلت : « إنى لأعلم أن الفن هو أقل ما نعنى به فى عصرنا هذا ، ولكنى آمل أن يكون هذا الكتاب بمثابة احتجاج على الآراء السائدة الآن ، كما آمل أن يوقظ صوتك معاصرينا وأن يساعدهم على إدراك الجرم الذى يجرمون بفقدهم أجل شطر من تراثنا القومى الا وهو الشغف الشديد بالفن والجمال » . فأجاب رودان « عسى الله أن يسمع منك »

* * *

كنا نسير الهوينا بمحاذاة البناء المستدير الذى اتخذه مرسما . فشاهدت كثيراً من التماثيل القديمة الفاتنة فى حمى السقيفة . فهذا تمثال صغير لعذراء مقنعة بعض الشىء تواجه خطيبا رزينا مشتملا بعباءته . وقريبا من هذين يوجد تمثال لكيوبيد [1] (Cupid) ممتطيا ظهر وحش من وحوش البحر ، ويقوم وسط تلك التماثيل عمودان رشيقان كورينتيان [2] من الرخام الوردى اللون . ويدل احتشاد تلك القطع الثمينة فى ذلك المكان على ولع مضيفى بالفنين الإغريقى والرومانى .

(١) هو إله الحب عند الرومان .
(٢) نسبة إلى كورنث من بلاد الاغريق .

وثمت بجعتان[١] ناعستان على حافة بركة . فما إن مررنا بهما حتى مطتا رقبتيهما الطويلتين المقوستين وأرسلتا فحيحاً مغضبا . ولقد دفعتني وحشيتهما إلى الجهر بأن هذا الطير ينقصه الذكاء . ولكن رودان أجابني ضاحكا : « حسبه ما به من جمال الخطوط ، وفي ذلك الكفاية » .

وبينما كنا نمشي الهوينا بدت هنا وهناك محاريب صغيرة اسطوانية الشكل من الرخام حفرت بها أضافير الأزهار . ويوجد تحت عريشة بديعة يعلوها نبات متسلق نضير الخضرة وتمثال صغير لمثرا[٢] (mithra) بدون رأس وهو يتقرب بثور مقدس . ويوجد عند مفرق طريق معشوشب تمثال إيروس[٣] (Eros) نائما على فروة أسد ، وقد غلب النوم ذلك الذي يروض الوحوش ويتغلبها على أمرها . وعند ذلك سألني رودان قائلا : « ألا ترى أن الخضرة هي أنسب شيء توضع بينه التماثيل القديمة ؟ ألا تستطيع ان تقول عن أروس هذا الصغير الناعس بأنه إله الحديقة ؟ أن لحمه ذا الغينات لشبيه بتلك الأوراق الخضراء في نضارتها وصفائها . لقد أحب فنانو الاغريق الطبيعة حبا جما حتى أن تماثيلهم لتزهو فيها كما تزهو في عناصرها التي قدت منها » .

ولنبحث الآن هذه الفكرة : انا نضع التماثيل في حديقة ، كيما تجمل بها تلك الحديقة . ولكن رودان يضعها بها كيما تكتسب تلك التماثيل جمالا منها . وعنده أن الطبيعة هي أبدا صاحبة الكلمة العليا والكمال الذي لا يحد .

وتقوم عند أصل شجرة من أشجار الاسفندان جرة اغريقية من فخار وردي اللون يغلب على الظن أنها كانت منطرحة بقاع البحر قرونا عدة وقد درست وتشبثت بمسامها بعض الطحالب وغيرها من عرماض البحار الجميلة ، فيخيل لمن يراها أنها أغفلت هناك عن قصد ، ومع ذلك فما كان يمكن أن تعرض لأعيننا بأجمل مما كانت عليه ، لأن ما كان طبيعيا هو غاية الذوق ومنتهاه .

ثم شاهدنا بعد ذلك بدنا لفينوس من غير ما رأس أو أوصال قد أخفى ثدياه بمنديل عقد وراء الظهر فيتبادر إلى ذهن الرائي أن أحداً من متكلفي الحياة يحدوه حياء مصنع — قد آلى على نفسه أن يستر تلك المفاتن .

ولكن من المحقق أن مضيفي لم يشاطر موليير (Moliere) رأيه في هذا الحياء المصنع . لأنه أفصح لي عن سر ذلك قائلا « أنا الذي أخفيت ثدي هذا التمثال لأنه أقل جمالا من بقية أجزاء البدن » وعند ذلك أدار مزلاج باب أدخلني منه إلى شرفة أقام عليها واجهة ذلك القصر الذي ذكرته منذ هنيهة والذي يرجع تاريخه إلى القرن الثامن عشر . تبدو هذه القطعة النبيلة رائعة حقا إذا ما شوهدت عن كثب . انها مدخل على رأس سلم من ثماني درجات ، حفرت على الافريز الذي يعلوه والذي يقوم على عمد تمثال تيميس (Themis) تحيط بها ملائكة الحب . وهناك قال مضيفي : « قديم قام هذا القصر الجميل على منحدر تل مجاور بأيساي (Issy) وكنت كلما مررت به أبديت إعجابي بجماله ، ولكن سرعان ما اشتراه السماسرة وقوضوا بناءه .. » وعند ذلك لاح بعينيه وميض الغضب وقال : « لا تستطيع أن تدرك مقدار الفزع الذي تملكني عند ما شاهدت هذه الجريمة ترتكب . آه يا للفظاعة ! أيهدموا هذا البناء الجميل ؟ لقد أثر ذلك في نفسي كثيراً كما لو كانوا يمثلون بجسم عذراء جميلة على مشهد مني » .

لفظ رودان هذه الكلمات بصوت ملؤه الخشوع العميق ولاريب أن في ذلك ما يشعرك بأن جسم الفتاة الأبيض البض هو أسمى وأروع المخلوقات في نظره . بل هو أعجوبة الأعاجيب ! وصل حديثه قائلا : « سألت أولئك الأوغاد الأنذال أن لا يبدد الأنقاض وأن يبيعونيها فرضوا . ثم أمرت بالأحجار فأحضرت إلى هنا وشددت بعضها إلى بعض على أحسن ما استطعت . ولسوء الحظ لم أرفع إلا حائطا واحداً إلى الآن كما ترى » .

ولتعجله وشدة تلهفه على الاستمتاع بذلك الأثر الفني البديع لم يتبع رودان الطريقة المثلى التي تقضي بأن تقوم حوائط البناء جميعها في وقت معا . وللآن لم يبن إلا جانبا واحداً من القصر وإذا ما قاربت بابه الحديدي ، نظرت من خلاله رأيت أرضا مخطوطة مشقوقة بها قطع من الأحجار تدلك على تصميم البناء المنتظر حقا إنه قصر أحلام بل وقصر فنان ! ثم تمتم مضيفي قائلا « حقا لقد كان بناؤونا القدماء رجالا عظماء لا سيما عندما نقارن

(١) أوزنتا — معجم أسماء الحيوان اسكندر معلوف

(٢) هو إله الشمس عند الفرس .

(٣) هو إله الحب عند الاغريق بل هو أجمل الهيم الذي لا يقاوم وتمثل بغلام جنيت جبل له جناحان .